أرملة حكومة...

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

(أرملة الحكومة) فيما تواضعنا عليه بيننا وبين قرائنا[1] هو الرجل المَزَب، يكون مُطيقاً للزواج قادراً عليه ولا يتزوج؛ بل يركب رأسه فى الحياة، ويذهب يُمَوِّهُ على نفسه كذبا وتدليساً، وينتحل لها المعاذيرَ الواهية، ويَمْتَلِق العللَ الباطلة، يحاول أن يُلْحِق نفسه بمرتبة الرجل المتزوج من حيث يَحُطُّ الرجلَ المتزوجَ إلى مرتبته هو؛ ويضيف شؤمَه على النساء إلى هؤلاء النساء المسكينات، يزيدهن على نفسه شرَّ نفسه؛ ويرميهنّ بالسوء وهو السوءُ عليهن، ويَتَنَقَّصُهُنّ ومنه جاء النقص، ويَعيبهُنّ وهو أكبر العيب؛ لا يتذكر إلا الذى له، ولا يتناسى إلا الذى عليه، كأنما انقلبت أوضاع الدنيا، وتبدلت رسومُ الحياة، فزالت الرجولة بقيمتها عن الرجل إلى المرأة، وانفصلت الأنوثة بحقوقها من المرأة إلى الرجل، فوجب أن تحمل تلك ما كان يحمل هذا، فتُقْدِمَ ويَقِرَّ وادعاً، وتتعب ويستريح، وتعانىَ الهمومَ السامية فى الحياة الاجتماعية؛ ويعانىَ المُتَشُ ابتساماته ودموعَه، متكئاً فى مجلسه النسيمىّ تحت جَناح المِرْوحة... فأما المرأة فتشرف على هَلَكَتِها، وتخاطِرُ بحاضرها ومستقبلها، وأما هو فيبقى من ثيابه فى مثل الخِدْر المَصُون...!

(أرملة الحكومة) هو ذلك الشاب الزائف المُبْهَرَج، يُحْسَبُ فى الرجال كذبا وزوراً؛ إذ لا تكمل الرجولةُ بتكوينها حتى تكمل بمعانى تكوينها، وأخصّ هذه المعانى إنشاءُ الأسرة والقيامُ عليها، أىْ مغامرةُ الرجل فى زمنه الاجتماعىّ ووجوده القومىّ، فلا يعيش غريباً عنه وهو معدود فيه؛ ولا طُفَيْلِيّاً فيه وهو كالنفىّ منه، ولا يكون مَظْهراً لقوة الجنس القوى هاربةً هروب الجبن من تحمّل ضعف الجنس الآخر المحتمى بها، ولا لمروءة العشير مُتَبَرِّئةً تَبَرُّؤَ النذالة من مؤازرة العشير الآخر المحتاج إليها؛ ولا يرضى لنفسه أن يكون هو والذل يعملان فى نساء أمته عملاً واحداً، وأن يصبح هو والكساد لا يأتى منهما إلا أمرٌ متشابه، وأن يبيت هو والفناء فى ظُلمةٍ واحدة كظلمات القبر، تنقل الأجداثَ إلى الدور، فتجعل البيت الذى كان يقتضيه الوطنُ أن يكون فيه أبٌ وأمٌ وأطفال — بيتاً خاوياً كأنما ثكل الأم والأطفال، وبقيت فيه البقية من هذا الرجل المَزَبِ للبيت أكثرُ تاريخه...!

لقد رأيت بعينىّ أداةَ العزب وأثاثه البعثر فى بيته، كأنما يقصّ عليه كلُّ ذلك قصةَ شؤمه ووحدته، وكأنما يقول له الفَرْش والنَّجْدُ والطراز: «بعنى يارجل وردّنى إلى السوق؛ فانى هنالك أطمع أن يكون مصيرى إلى أب وأم وأولاد، أجدُ بهم فرحةَ وجودى، وأصيب من معاشرتهم بعض ثوابى، وأبلى تحت أيديهم وأرجلهم فأكون قد عملت عملاً انسانياً. أما عندك فأنت خشبة مع الخشب، وأنت خِرْقة بين الخِرق. واسمع الكرسىّ إنه يقول: أفّ. وأصغ إلى فراشك انه يقول: تفّ..»

شهد العزبُ وربُّ الكعبة على نفسه أنه مُبْتَلًى بالعافية، مستعبدٌ بالحرية، مجنون بالعقل، مغلوب بالقوة، شقى بالسعادة. وشهدت الحياة عليه ورب البيت أنه فى الرجولة قاطع طريق يقطع تاريخها ولا يؤمّنه، ويسرق لذاتها ولا يكسبها، ويخرج على شرعها ولا يدخل فيه، ويعصى واجباتها ولا ينقادلها. وشهد الوطن — والله — عليه أنه مخلوق فارغ كالواغل على الدنيا؛ إن كان نعمةً بصلاحه، انتهتْ النعمةُ فى نفسها لا تمتد؛ وإن كان بفساده مصيبةً امتدتْ فى غيرها لا تنقطع. وأنه شحّاذ الحياة أحسن به الأجداد نسلاً باقياً، ولا يُحْسن هو بنسل يبقى، وأنه فى بلاده كالأجنبى، مهبطه على منفعةٍ وعيشٍ لاغيرها، ثم يموت وجودُ الأجنبى بالنَّقْلَةِ إلى وطنه، ويموت وجودُ العزب بالانتقال إلى ربه؛ فيستويان جميعاً فى انقطاع الأثر الوطنىّ، ويتفقان جميعاً فى انتهاب الحياة الوطنية، وأن كليهما خرج من الوطن

---

(١) أنظر مقالة «استنوق الجمل» بالعدد ٦٤ من الرسالة. والتاء فى «أرملة الحكومة» ليست للتأنيث، بل هى تاء جديدة فى العربية، تزاد فى هذه الكلمة خاصة، واسمها تاء الهزؤ... وياحبذا لو اصطلح النساء والفتيات والمتزوجون جميعاً على تسمية كل رجل مُخرِّب «أرملة حكومة» فان هذا الاسم إذا عم وشاع كان فى معناه وفعله المطهر حامضاً لغوياً كحامض الخليك...!

أيبتر لا عقب له ، ويذهبان معاً فى لجج النسيان : أحدهما على باخرة ، والآخر على النعش !

* * *

جاءنى بالأمس « أرملة حكومة » وهو مهندس موظف . ومعنى الهندسة الدقة البالغة فى الرقم والخط والنقطة وما احتمل التدقيق ؛ ثم الحذرُ البالغ أن يختلّ شيء أو ينحرف ، أو يتقاصر أو يطول ، أو يزيد أو ينقص ، أو يدخله السهو ، أو يقع فيه الخطأ ؛ إذ كان الحاضر فى العمل الهندسىّ إنما هو للعاقبة ، وكان الخيال للحقيقة ؛ وكان الخُرْق هنا لا يقبل الرُّقعة . ومتى فصلت الأرقام الهندسية من الورق إلى البناء مات الجمع والطرح والضرب والقسمة ، ورجع الحساب حينئذ وهو حساب عقل المهندس ؛ فاما عقل دقيق منتظم ، أو عقل مأفون مختلّ .

بَيْد أن المهندس — على ما ظهر لى — قد خَلَتْ حياته من الهندسة . . . وانتهى فيها من التحريف المضحك — حتى فيما لا يخطىء الصغار فيه — إلى مثل التحريف الذى قالوا إنه وقع فى الآية الكريمة « إياك نعبد وإياك نستعين . » فقد رَوَوا أن إمام قرية من القرى فى الزمن القديم كان يخطب أهل قريته ويصلى بهم فى مسجدها ، فنزل به ضيف من العلماء فقال له الخطيب : إن لى مسائل فى الدين لم يتوجّه لى وجهُ الحق فيها ، ولا أزال متحيّر الرأى ، وكنت من زمن أتمنى أن ألقى بها الأئمة فأريد أن أسألك عنها . قال العالم : سَلْ ما أحببت .

قال الخطيب : أشكَلَ علىّ فى القرآن بعضُ مواضع ، منها فى سورة الحمد « إياك نعبد وإياك » . . . أىّ شيء بعده . « تسعين ، أو سبعين » . . ؟ أشكَلَتْ علىّ هذه فأنا أقرؤها : تسعين . أخذاً بالاحتياط . . !

كذلك مهندسنا فيما أشكل عليه من حسابه للحياة ، فهو يَعزب أخذاً بالاحتياط . قال وهو يحاورنى :

كيف تُكَلِّفنى الزواج وتُكرِهنى عليه ، وتُعَنِّفنى على العزوبة وتعيبنى بها ؛ وإنما أنت كالذى يقول : دع الممكن وخذ المستحيل . إن استحالة الزواج هى جعلتنى عَزَباً ، والعزوبة هى جعلتنى فاسداً ، وفى هذا الجو الفاسد من حياة الشباب إما أن تكسد الفتاة ، وإما أن تتصل بها العَدْوَى . والعزب لا يأبى أن يقال فيه إنه للنساء طاعون أحمر أو هواء أصفر ؛ فهو والله مع ذلك موت أسود وبلاء أزرق .

قلت : لقد هوّلتَ علىّ ؛ فما مستحيلك يا هذا ، ولم استحال عليك ما أمكن غيرَك ، وكيف بلغت مصر خمسة عشر مليوناً ؟ أمِنْ غير آباء خُلِقوا ، أم زُرِعوا زرعاً فى أرض الحكومة ؟ إسمع — ويحك — ألاّ يكون الرجال قد أقبلوا وتزاجعت ، وتجلدوا وتوجّمت ، أو أقدموا وخنست ، واسترجلوا وتأنّثت ؟

قال : ليس شيء من هذا .

قلت : فان المسألة هى كيف ترى الفكرة ، لا الفكرةُ نفسها ، فما حملك على العزوبة وأنت موظف وظيفتك كذا وكذا ديناراً ، وأنت مهندس يصدق عليك ما قالوه فى الرجل المجدود : لو عَمِد إلى حجر لانفلق له عن رزق .

قال : أليس مستحيلاً ثَمّ مستحيلاً أن يجمع مثلى يده على مائة جنيه يدفعها مهراً ؛ وما طرقت — علم الله — بابا إلا استقبلونى بما معناه : هل أنت معجزة مالية ، هل أنت مائة جنيه ؟

قلت : فان عملك فى الحكومة يُغِلّ عليك فى السنة مائة وثمانين ديناراً فلِمَ لا تعيش سنة واحدة بثمانين فتقع المعجزة ؟

قال : « بكل أسف » لا يستطيع الرجل العزب أن يدخر أبداً ؛ فهو فى كل شيء مبدِّد ضائع متفرق .

قلت : فهذه شهادتك على نفسك بالسفه والخرق والتبذير ؛ تنفق ما يكفى عدداً وتضيق بواحدة ، وماذا يَرْثِى مثلك فى الحياة ؟ أعند نفسه وفى يقينه أن يتأبّد فيبقى عزباً فهو ينفق ما جمع فى شهوات حياته ، ويتوسع فيها ضروباً وألواناً ، ليكون وهو فرد كأنه وهو فى إنفاقه جماعة ، كل منهم فى موضع رذيلة أو مكان لهو ؛ وكأن منه رجالاً هو كاسبهم وعائلهم ، ينفق على هذا فى القهوة ، وعلى هذا فى الحانة ، وعلى ذلك فى اللاهى ، وعلى الرابع فى المواخير ، وعلى الخامس فى المستشفى . . . ؟ إن كان هذا هو أصل الرأى عند العزب ، فالعزب سفيه مجرم ، وهو إنسان خرب من كل جهة إنسانية ، وهو فى الحقيقة ليس المتّسعَ لنفقات خمسة ، بل كأنه قاتل خمسة من أبناء وطنه ؛

[البقية على صفحة ١٦٧٩]